الإشارات الإلهية في آيات تحويل القبلة[1]

بسم الله الرحمن الرحيم:

{سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٤٣) قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧) وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠)} (البقرة)

هذه الآيات التي يتكلم فيها الله عز وجل عن تحويل القبلة، وشرح هذه الآيات يحتاج إلى وقتٍ ويل، لكن المسلم ذوَّاق وخاصة لكتاب الله، ونريد أن نأخذ بعض الإشارات الإلهية في هذه الآيات القرآنية وهي التي تعطينا مؤشراً بقيمة القبلة والإتجاه للقبلة، لأن هذا أمرٌ جوهري وأساسي في الديانة الإسلامية، لأنه لا يجب أن يتهاون فيه أحد، لأن هناك كثيرٌ من الناس يكون في مكانٍ ما ولا يدري اتجاه القبلة، فيدَّعي أنه يُحسن الظن بالله ويردد الآية: {فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} (١١٥البقرة) ويُ ـلي وانتهى الأمر، لكن لا بد من الأخذ بالأسباب الشرعية التي وضعتها الشريعة المحمدية للإتجاه إلى القبلة بالوسيلة المرضية لأن هذا شيء جوهري في هذا الدين.

[1] الزقازيق ـ مسجد الدعوة إلى الله ١١ من شعبان ١٤٣٦هـ ٢٠١٥/٥/٢٩م

١ [1] الزقازيق ـ مسجد الدعوة إلى الله ١١ من شعبان ١٤٣٦هـ ٢٠١٥/٥/٢٩م

السفهاء وتحويل القبلة

والسفهاء هم الذين عندهم ـيشٌ في العقل، وخفة في الفكر، وحدَّةٌ في الذهن مثل اليهود والكفار وما شابههم.

عندما أُمر النبي ﷺ أن يتجه إلى قبلة أبيه إبراهيم؛ خاض اليهود وقالوا: لِمَ ترك قبلتنا؟ لو كان يعلم أنها ليست على الحق فلِمَ اتبعها من قبل؟ وبدأوا يشكِّكوا، وضعاف الإيمان والمشركون قالوا: لِمَ رجع إلى قبلتنا؟ لأنه يعلم أن ديننا هو الحق، مع أن دينهم هو عبادة الأصنام، ولا بد أنه سيترك ما هو فيه ويرجع إلينا.

وككل حادثٍ جلل حدث خللٌ بين ضعاف النفوس الذين يتأثرون بالأقوال، حتى رُوي أن هناك بعض من ارتدَّ عن الإيمان بسبب ذلك، كل هؤلاء قال فيهم الله: {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ} فهؤلاء جميعهم سفهاء يعني عقولهم غير ناضجة وغير مكتملة.

{ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا} وأجاب الله بإجابة شافية:

{ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ } (١٤٢البقرة)

ولِمَ ذكر الله المشرق والمغرب؟ لأن اليهود كانوا يتجهون إلى المغرب والنـ ـارى كانوا يتجهون إلى المشرق، والله سبحانه وتعالى عَلِيٌّ عن ذلك، فنحن إذا توجهنا بالقالب إلى القبلة إلا أن القلب لا يتوجه إلا لله، فالمهم هو القلب:{ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} البقرة (١٤٢) هو الذي بيده الهداية، ولذلك قال لنا ﷺ في ذلك في الحديث الذي ترويه السيدة عائشة رضي الله عنها:

{ بَيْنَمَا أَنَا قَاعِدَةٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جَاءَ ثَلاثَةُ نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ، فَاسْتَأْذَنَ أَحَدُهُمْ، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ، وَفِيهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: تَدْرِينَ عَلَى مَا حَسَدُونَا؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُمْ حَسَدُونَا عَلَى الْقِبْلَةِ، الَّتِي هُدِينَا لَهَا، وَضَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَى الْجُمُعَةِ، الَّتِي هُدِينَا لَهَا، وَضَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَى قَوْلِنَا خَلْفَ الإِمَامِ آمِينَ }[٢]

هذه الأشياء التي يحسدنا عليها اليهود، وهم يعلمون علم اليقين أن ما وُجِّه إليه سيد الأولين والآخرين هو الحق، وعندهم في كتبهم هذه الأنباء واضحة لا لبس فيها.

أمة الوسطية

{ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} أنتم الأمة صاحبة منزلة الوسطية، لا شرقية ولا غربية وإنما إسلامية قرآنية مُحَمَّدية:{ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} البقرة(١٤٣)

[٢] السنن الكبرى للبيهقي

٢ [١] الزقازيق ـ مسجد الدعوة إلى الله ١١ من شعبان ١٤٣٦هـ ٢٠١٥/٥/٢٩م

رفع الله عز وجل شأننا في هذه الآية حتى أنه جعلنا أعلى من مراتب النبيين والمرسلين السابقين، فقد قال ﷺ في حديثه الصحيح:

{ يَجِيءُ النَّبِيُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَعَهُ الرجل، يَجِيءُ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَيَجِيءُ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الثَّلَاثَةُ، وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ وَأَقَلُّ، فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ قَوْمَكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ فَيُدْعَى قَوْمُهُ، فَيُقَالُ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: لَا، فَيُقَالُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَتُدْعَى أُمَّةُ مُحَمَّدٍ، فَيُقَالُ: هَلْ بَلَّغَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: وَمَا عِلْمُكُمْ بِذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: أَخْبَرَنَا نَبِيُّنَا بِذَلِكَ، أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا فَصَدَّقْنَاهُ، قَالَ: فَذَلِكُمْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ }[3]

إذاً فنحن شهودٌ على الأمم، والنبي شهيدٌ علينا وعلى الأمم، فأعلى الله مقام هذه الأمة وجعلهم في مقام الشهداء إذاكانوا كمن قال النبي ﷺ في شأنهم:

{ أُدَبَاءُ حُلَمَاءُ عُقَلاءُ فُقَهَاءُ كَادُوا مِنْ فِقْهِهِمْ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ }[4]

وفي رواية أخرى:

{ عُلَمَاءُ حُكَمَاءُ، كَادُوا مِنْ صِدْقِهِمْ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ }[5]

حكمة تحويل القبلة

ثم بيَّن الله تبارك وتعالى حكمة من حكم تحويل القبلة، ولِمَ جعل القبلة أولاً إلى بيت المقدس:{ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ } البقرة (١٤٣) اختبار وابتلاء وامتحان، وحياة الأنبياء وأتباعهم كلها اختبارٌ وابتلاءٌ وامتحانٌ.

الإسراء والمعراج كان امتحاناً، فمن الأتباع من أنكر ذلك وارتدَّ، ومنهم من زاد إيمانه وصدق حتى لُقِّب بالصديق، وكذلك في هذا الحادث الجلل { وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ} الذين هداهم الله عز وجل يستمعون بقلوبهم، ولأنهم صدقوا بقلوبهم لربهم ولنبيهم فيقولون: سمعنا وأطعنا، أما أصحاب الخلاف والإختلاف الذين يريدون أن يُحكِّموا عقولهم على الغيب المصون فيُنكرون.

وكيف للغيب أن يُشرق عليه العقل؟! إذا كان الإنسان لا يدري شيئاً عن عقله، فكيف يحكم بعقله على غيب ربه عز وجل الذي خلق عقله؟!.

---

[3] سنن ابن ماجة ومسند أحمد عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه

[4] أحاديث منتقاه من مشيخة أبي بكر الأنصاري عن سويد بن الحارث رضى الله عنه

[5] الأربعين لأبي سعد النيسابوري عن سويد بن الحارث رضى الله عنه

[1] الزقازيق ـ مسجد الدعوة إلى الله ١١ من شعبان ١٤٣٦هـ ٢٠١٥/٥/٢٩م

حفظ الإيمان

دار حديثٌ بين أصحاب النبي ﷺ: ما حال صلاة إخواننا الذين ماتوا وكانوا يتجهون إلى بيت المقدس؟ وما حال صلاتنا التي اتجهنا فيها إلى بيت المقدس قبل أن نتوجه إلى الكعبة المباركة، فقال الله إجابة على هذا السؤال: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} اطمئنوا واعلموا علم اليقين أن الذي أمر في البداية هو الله، وأن الذي أمر في النهاية هو الله، وما دام الله هو الذي أمر فالعمل مقبولٌ إن شاء الله؛ ما دام العبد يؤديه بإخلاص قصدٍ لوجه الله عز وجل.

الرأفة والرحمة الإلهية

{ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} البقرة (١٤٣) لنعلم ونطمئن أنه خاطبنا بأسماء الرأفة والرحمة الإلهية، ودائماً المؤمن عندما يذكر ويتذكر ربه يتذكر أوصاف الرحمة الإلهية.

أوصاف العقاب وأوصاف الجلال للكافرين والجاحدين والمشركين، لكن ليست لنا، وبيَّن النبي ﷺ هذه الأوصاف، فعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِسَبْيٍ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَبْتَغِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ، فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

{ أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟ قُلْنَا: لا وَاللَّهِ، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ الْمَرْأَةِ بِوَلَدِهَا }[٦]

دائماً المؤمن يتذكر رحمة الله وفضل الله وإكرام الله وعفو الله لأن هذا هو الأليق في معاملة الله عز وجل بعباده المؤمنين.

تحويل القبلة

ولأن الله عز وجل يحب حبيبه ومصطفاه فإنه سبحانه رأى ما يدور في قلبه من رغبته في استقبال الكعبة البيت الحرام في صلاته، فأجابه عز وجل إلى ذلك بغير طلب، حيث كان ﷺ يُصلي الظهر أو العصر في بني سلمة، وبعد أن انتهى من صلاة الركعة الأولى والثانية تجاه بيت المقدس نزل عليه الوحي الإلهي وهو في الصلاة بقول الله تعالى: { قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ} فاستجاب لها ﷺ فوراً واتجه في الركعة الثالثة إلى البيت الحرام، وتحول عن ا تجاه إلى بيت المقدس، وتابعه المصلون خلفه في ذلك، وحتى يُثبِّت الله النبي وأتباعه في هذا أخبره أن توجهه إلى الكعبة في الصلاة هو الحق الثابت عند الله.

---

[٦] البخاري ومسلم

وقد ذكر ذلك في الكتب السماوية السابقة، وعلى ألسنة الرسل، فقال تعالى في ذلك{ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ} وحتى لا ينشغل الرسول ﷺ بأقوالهم الباطلة وليّهم للحقائق مع معرفتهم للحق قال تعالى: { وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) البقرة } فهو عز وجل يراهم ويراقبهم ويطلع على أعمالهم الظاهرة، ونواياهم الباطنة.

ثم أراد الله عز وجل أن يجلّي لحبيبه حقيقةً الأمر حتى لا يشغل نفسه إلا بما يفيد، فأخبره خبراً أكيداً{ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ} أي بكل معجزة وبكل دليل وبكل برهان فلن يسيروا خلفك ولا يتبعوا قبلتك، لماذا؟ لأنهم يعرفون أنه الحق، وما الذي يمنعهم؟ الحسد الذي عندهم، وما دام الداء هو الحسد فلا ينفع مع الحسد برهانٌ ولا دليلٌ ولا آيةٌ.

{ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ} لأنك تعرف أنه الحق اليقين، الحق الذي حدده لك رب العالمين من قبل، وهم كذلك مع بعضهم:

{ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ} فلن يمشي أحدهم تابعاً للآخر.

توجيه للأمة الإسلامية

ثم خاطب الله عز وجل الأمة في شخص النبي ﷺ، عندما يكون هناك رئيسٌ عمل وهناك توجيه لأحدٍ تحت رئاسته فالخطاب يوجَّه لمن؟ لرئيس العمل ولكن من هو المسئول فيه ومن المخاطب فيه؟ المُوجَّه إليه الخطاب، فوجَّه الله عز وجل الحديث للحبيب لأنه أمير هذه الأمة ونبيها وقائدها في الدنيا وزعيمها في الآخرة، ويقـ ـد بالحديث أمة النبي ﷺ:{ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ} لأن النبي ﷺ ليس له هوىً إلا في مولاه، وليس له هوىً إلا في رضاه، لكن الذين تتلاعب بهم الأهواء أدعياء الإسلام الذين يظهرون في كل عـ ـر يتمسحون بالإسلام، وهم يريدون في نفوسهم غرضاً خبيثاً أو غرضاً دنيوياً تحت مُسمَّى الإسلام، وهذا معـ ـومٌ منه النبي عليه أفضل الـ ـلاة وأتم السلام.

وأنتم تعلمون أن أهل مكة عرضوا عليه فقالوا: إن كنت تريد بما جئت به مُلكاً ملكناك علينا، وإن كنت تريد بما جئت به مالاً جمعنا لك حتى تكون أغنانا، وإن كان ما عندك شيء من السحر جلبنا لك الحكماء حتى يطببوك، ولكنه ﷺ قال لعمه:

{ يا عماه، لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي، عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الأَمْرَ، حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُهُ }[٧]

إذاً النبي ﷺ ليس عنده هوى وقد قال الله فيه: { وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤) }(النجم) قوله وحيٌ، وعمله وحيٌ، وتشريعاته كلها وحيٌ، وتوجيهاته ووصاياه كلها وحيٌ، إذاً الخطاب في هذه الآية

[٧] تاريخ الطبري عن ابن عباس ﷺ

للأمة.

{ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥) البقرة} أي كل رجلٍ في الأمة يميل بهواه لقصدٍ غير ما يريده مولاه أو حبيب الله ومصـ فاه يكون من الظالمين كما نصَّ الله جل في علاه.

معرفة أهل الكتاب بالنبي

وبيَّن الله عز وجل حقيقة أهل الكتاب وقال فيهم: { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ } هل يوجد أحدٌ لا يعرف إبنه؟! هم كذلك، دقة الوصف الذي وُصف به النبي ﷺ على لسان موسى وعيسى وذُكر في التوراة والإنجيل الصحيح يجعلهم يعرفون النبي أكثر من معرفتهم لأبنائهم.

سيدنا عمر بن الخـ ـاب رضى الله عنه يسأل عبد الله بن سلام بعد ما أسلم فيقول له: هل كنت تعرف النبي كمعرفتك بإبنك؟ قال: كنت أعرف النبي أكثر من معرفتي لإبني، قال: كيف؟ قال: نزل أمين السماء على أمين الأرض بصفات هذا النبي فصدقناه وعرفناه، لكن إبني لا أعرف حقيقته عند أمه.

فهذا معنى الآية التي ذكرها هذا الحبر من أحبار اليهود:
{ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) } البقرة

وهذا حدث معهم عندما أسلم سيدنا عبد الله بن سلام فقال:

{ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهْتٌ، وَإِنَّهُمْ إِنْ يَعْلَمُوا بِإِسْلامِي يَبْهَتُونِي عِنْدَكَ، فَأَرْسِلْ إِلَيْهِمْ، فَاسْأَلْهُمْ عَنِّي أَيُّ رَجُلٍ ابْنُ سَلامٍ فِيكُمْ؟، قَالَ: فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: أَيُّ رَجُلٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلامٍ فِيكُمْ؟، قَالُوا: خَيْرُنَا، وَابْنُ خَيْرِنَا، وَعَالِمُنَا، وَابْنُ عَالِمِنَا، وَأَفْقَهُنَا، وَابْنُ أَفْقَهِنَا، قَالَ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ تُسْلِمُونَ؟، قَالُوا: أَعَاذَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: فَخَرَجَ ابْنُ سَلامٍ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، قَالُوا: شَرُّنَا، وَابْنُ شَرِّنَا، وَجَاهِلُنَا، وَابْنُ جَاهِلِنَا، فَقَالَ ابْنُ سَلامٍ: هَذَا الَّذِي كُنْتُ أَتَخَوَّفُ مِنْهُمْ }[٨]

{ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧) البقرة } إياك أن تشك لحظة في كلام الله، وأيضاً وهذا الخـ ـاب لأمة النبي: إياكم أن تشكوا في أى شرعٍ أو أى أمرٍ أو أى وصية جاء بها شرع الله، أو جاء بها نبي الله، وهذا الكلام حدث في هذه الأيام التي نحن فيها الآن، وزاد عن الحد من أُناسٍ جهلاء أُعـ ـوا منصَّاتٍ في الفضائيات ويريدون أن يفسروا كلام الله بأهوائهم، وأن يُفتوا في دين الله بضلالهم؛ لأنهم حادوا عن الحق وبعدوا عن الصواب، لكن المؤمنين آمنوا بكل ما جاء به النبي:

[٨] مسند أحمد وابن حبان عن أنس رضى الله عنه

{آَمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا} (٧آل عمران)

ما فهمنا مقاصده فنحمد لله، وما لم نفهم مقاصده عملنا به وتركنا أمره لله، لأن العقل الذي خلقه لنا الله ليس له الإحاطة بالتشريع الذي جاء به رسول الله إ بقدر ما يعلمه الله جل في علاه.

{ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ} أراح الله عز وجل نبيه من جهة هؤ ء، فعرف أنها إرادة الله، فهو الذي يولِّي هذا للمشرق وهذا للمغرب وهذا لليهودية وهذا للنصرانية، ونحمد الله عز وجل على أن وجهنا للديانة الإسلامية الحنيفية فضلاً من الله ونعمة: { يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ َ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} (١٧الحجرات)
{ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَ الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا} (٥٢الشورى).

فنور الله عز وجل الذي يتفضل به علينا الله فضل من الله وإكرام من الله، فأمرنا الله عز وجل أن نستبق فعل الخيرات، ونعمل على زيادة النوافل والقربات، ونستزيد من الصالحات؛ لأننا نعلم علم اليقين أننا في الختام سنُجمع عند الله: { أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا} كلنا بعد الفناء وبعد الموت سيجمع الله الكل في يوم معلوم في موقف محتوم يستطيع أحدٌ أن يجادل عن نفسه، و يستطيع أن يكذب {لأن هُنَالِكَ الْوَ يَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ} (٤٤الكهف) وستظهر الحقائق كما هي: { وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ َ يُظْلَمُونَ} (٢٨١البقرة).

حكمة تكرار الأمر بالتوجه إلى البيت

ثم كرر الله عز وجل الأمر للنبي لحكمٍ علَّمها الله عز وجل لمن يشاء من عباده، حتى نشك و نرتاب أو ً، فقال له: { وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ} يعني حتى لو سافرت لأي مكان: { فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ} تأكيداً على أن هذا هو الحق حتى نشك لحظة في أمر الله جل في علاه{ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) }ولذلك إذا سافر الإنسان يتحرَّى أن يتجه إلى القبلة، ويحاول قدر استطاعته أن يتجه إلى القبلة، ليس له عذرٌ في ذلك إ إذا لم يستطع تبين الأمر بياناً شافياً، ففي هذا الوقت يكون عذره { فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} (١١٥البقرة).

إذا كان الإنسان في سفرٍ ويصلي على أى حالة فعليه أن يولِّي وجهه جهة القبلة ولو لحظة نية الإحرام، ثم بعد ذلك يتجه كما يشاء كما رأى بعض أصحاب المذاهب الفقهية.

أما المذهب المعتمد ففي الفريضة بد من الإتجاه إلى القبلة، وفي النوافل يجوز أن يتجه الإنسان مع نية الإحرام إلى القبلة ثم يجلس في الكرسي الذي هو فيه، أو في المكان الذي هو فيه في أى اتجاه، لأنه قد يكون قلبه مع الله وقالبه اتجه في البداية إلى القبلة كما شرع الله لحبيبه ومصطفاه ﷺ.

وحتى تظن الأمة أن هذا الأمر للنبي كرر الله الأمر وقال: { وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ} يعني

اصرف وجهك { شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} يعني تجاه المسجد الحرام، وقال لنا:
{ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ} يعني اصرفوا وجوهكم تجاه المسجد الحرام.

كرر الله هذا الأمر ثلاث مرات، لماذا؟ تأكيداً لهذا الأمر وأنه من عند الله، وبعض السادة الأجلاء قالوا: قال ﷺ:

{ الْبَيْتُ قِبْلَةٌ لأَهْلِ الْمَسْجِدِ، وَالْمَسْجِدُ قِبْلَةٌ لأَهْلِ الْحَرَمِ، وَالْحَرَمُ قِبْلَةٌ لأَهْلِ الأَرْضِ فِي مَشَارِقِهَا وَمَغَارِبِهَا مِنْ أُمَّتِي }[٩]

فإذا كنت في المسجد الحرام فيكون الإتجاه إلى الكعبة نفسها، وإذا كنت في مكة يكون الإتجاه للمسجد وليس للكعبة، وإذا كنت في أى موضع في الأرض يكون الإتجاه إلى مكة حتى يذكر الحالات التي يكون فيها الناس للإتجاه إلى الصلاة في كل أنحاء الدنيا.

لماذا شرفتنا يا رب بهذا الأمر، وأمرتنا به؟ لعدة حكم إلهية ذكرتها ختام هذه الآية القرآنية: أولاً: { لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ} حتى لا يكون لأحدٍ حُجة ويقول أن ذلك من عند النبي، أو أن ذلك رغبة منكم في الرجوع إلى قبلة إبراهيم، وإنما أكَّد الله هذا الأمر ثلاث مرات.

{ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} وليس لنا شأنٌ بالظالمين لأنهم يقولون ويهزأون بما يريدون به تحويل الحق با لاً والبا ل حقاً.

ثانياً: { فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي} حتى تصلوا إلى مقام الخشية، فأساس العلاقة بين المؤمن وربه هي خشية الله، ومن وصل إلى مقام خشية الله فذلك الذي في المقام الأعظم عند الله:

{ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} (٢٨فا ر).

والخشية هي حقيقة الخوف في القلب، وفي با ـن القلب من الله، فهذا العالم بالله عز وجل: { وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} (٤٦الرحمن) الذي يخشى الله ولا يخشى الخلق فهذا المقام الأعلى، فقد يخشى الإنسان الله، لكنه يراقب الخلق ويخاف من ملاماتهم وهذا مقام، لكن المقام الأعلى أن يخشى الله ولا يخشى أحداً إلا الله:

{ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ} (٣٩الأحزاب)

ثالثاً: تمام النعمة: { وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ }فإن الله أتم على المؤمنين النعمة بأن أتمَّ عليهم الدين، واكتملت شرائع الله عز وجل في دين سيد الأولين والآخرين، وجعل الله عز وجل كل ما يريده من خلقه من الأولين والآخرين مجملاً ومفصلاً فيما أتى به سيد الأولين والآخرين ﷺ: { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} (٣المائدة).

فدين الإسلام هو دين الكمال لأن الأرض حدث فيها اكتمالٌ للعقول واكتمال للأجسام واكتمال للقلوب

---

[٩] سنن البيهقي عن ابن عباس ﷺ

٨ [١] الزقازيق ـ مسجد الدعوة إلى الله ١١ من شعبان ١٤٣٦هـ ٢٠١٥/٥/٢٩م

وللنفوس فأنزل الله عز وجل الكمالات الإلهية التي يرجوها من البشرية على يد خير البرية ﷺ.

وهدى الله هذه الأمة وهو مسك الختام: { وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠)} (البقرة)

ولعلكم تهتدون إلى مالم يهتدي إليه غيركم من الأمم، فقد أرادوا أن يهتدوا إلى الحق ولكن الله عز وجل لدهائهم ومكرهم وحيلهم صرفهم عنه وهدى هذه الأمة إلى الحق المبين.

نسأل الله عز وجل أن يُتم علينا نعمته وأن يتنزل علينا بسكينته وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم